

قيمة الانسان (*)

للاستاذ ميخائيل نعيمة ببسكتنا

يغلى العالم فى هذه الأيام ويفور ، وأخشى أن سيعقب الغليسان والפורان انفجار فظيع ودمار هائل . وأنا إذ أقول «العالم» أعنى عالم الانسان لا أكثر ، أما السماء بأزالتها وأبائها ، ومعالمها وأبعادها ، وأما الأرض بجمادها ونباتها وما دون الانسان من حيوانها ، فهذه كلها لاغليان فيها ولا فوران ، ولاخوف عليها من الانفجار والدمار . وقد يكون لها أجل محتوم ، الا أنه أجل بعيد ومكتوم . والذي نراه اليوم من مظاهرها وحركاتها ، ونسمعه من أنفاسها وأصواتها هو عين ما رآه وسمعه أجدادنا وأجداد أجدادنا منذ آلاف آلاف السنين ، فلا السماء محمومة ولا الأرض مهمومة . لالتك تغلى ولا هذه تفور . أما البشرية فمحمومة ومهمومة ، وهى فى غليان وفوران . فعلام هذا الغليان ؟ وقيم هذا الفوران ؟

لذلك أسباب شتى ، منها الظاهر ومنها الخفى ، ومنها القريب ومنها البعيد . ولعل أظهرها وأقربها هو أننا فى خلال ربع قرن واحد أستطعنا أن نعمل ما عجزت عن عمله جميع القرون الخوالي ، ان قد خلقنا لنا أجنحة تنهزم من وجهها المسافات ، فالريح أبطأ من أن تجارينا . واتخذنا من الأثير المسنة لأفكارنا ، فالبرق لايسبق كلمة نرسلها من مشارق الأرض الى مغاربها ، واذنا بالأرض تتقلص ، وبأبعادها تتدانى ، وبمجاهلها تغدو معالم ، واذنا بالأمم يطل بعضها على بعض ، ويسفر بعضها لبعض ، ويسمع بعضها صوت بعض ، فلا سقوف ، ولا حجب ، ولا سدود . واذنا بالأرض مصول واحد تتصل فيه جميع شعوب الأرض .

تلك معجزة جاءتنا بها الحربان الأخيرتان ومارافقهما من الثورات والزعازع ، فكان منها أن تفسخت أسس الأمم ، وماد بنيان كل منها وتصدع ،

(*) من مجلة الكتاب ، القاهرة ، دار المعارف ، نوفمبر ١٩٤٧ ، ص ١٧٠٢

فلا انعزال فيما بعد ولا انكماش ولا استقلال ، بل هنالك تسرب وتداخل وتمازج ، وهنالك احتكاك وحذر وارتباك ، فما من عقيدة ثابتة ، وما من تقليد راسخ ، وما من رادع الا يناهضه ألف رادع ، أو وازع لا يعاكسه ألف وازع . فكان الأمم ، وقد كانت من قبل كالطير تبني كل واحدة وكرها لذاتها ، أصبحت وإذا فى وكرها بيض غير بيضها وفراخ غير فراخها . فكان من الطبيعى أن تضطرب وأن تهدد أو أن تستغيث .

أو كأن الأمم قطعان من البقر ، ولكل قطيع رعاته ومراعية ومواردية وزرائبه ، وأفراد القطيع قد ألفوا رعاته وبعضهم بعضا ، مثلما ألفوا عداواتهم وصدقاتهم . ثم جاء من خلط كل هذه القطعان من غير سابق انذار ، فاختلطت عليها رعاتها ومراعياها ، ومواردها وزرائبها ، مثلما اختلطت عليها عداواتها وصدقاتها ، فعلا الخوار ، واحتدم النطح ، واشتبكت القرون والقوائم ، فكان غليان وكان فوران .

ذاك فى نظرى هو السبب الأظهر والأقرب لما تشهدون فى العالم من حمى وهذيان وغليان وفوران . أما السبب الخفى والبعيد ، وأما السبب الأهم ، فهو أن الناس الذين أقاموا لكل شىء قيمة ووزنا ما أقاموا بعد للانسان قيمة ووزنا يلقيان بمجده وعظمته وجبروته .

كل ما فى الطبيعة ثمين وجميل وشريف ، ولكن ائمنه وأجمله وأشرفه على الاطلاق هو الانسان ، فهو الكائن الذى لاحدود لكيانه ، هو الفكر الذى لا يثنى يفتش عن ذاته ، والخيال الذى لا يمل ارتياد المستتر والمجهول ، والمغنطيس الذى يتناول الالهام من كل ما يتصل به من الكائنات ، والخزان الذى لا ينضب من الشوق الى الكمال المطلق ، هو غاية الطبيعة من وجودها . أما غايته من وجوده فمعرفة لنفسه ، ومعرفة لنفسه تعنى معرفته لله . ومعرفة لله تعنى معرفته لكل شىء ، ومعرفة لكل شىء تعنى القدرة على كل شىء والانعقاد من كل قيد وحد . ومن كان ذلك شأنه ومقامه فى الكون فبماذا تزنه وكيف تحدد قيمته ؟ انه فى اعتقادى فوق كل الموازين والائمان .

بيد أن الناس يعتقدون غير ما أعقد ، والا لما جعلوا لكل انسان

قيمة ووزنا ، ولما اختلفت موازينهم باختلاف الناس وما يحترفون ويمتهنون ، أو يملكون وينفقون ، أو يعرفون ويجهلون ، ولما اختلفت باختلاف الأ حساب والانسان ، والرتب والمقامات والحسن والبشاعة ، والجاه والرضاعة ، فكان الواحد بمقام الألف أحيانا ، وأحيانا كان المليون بمقام الصفر عن يسار الواحد . ثم صار الانسان سلعة بخسة تضحى فى سبيل سلعة أثمان .

لقد تواضع الناس على أثمان للأشياء التى يحتاجون اليها فى حياتهم ، وهذه الأثمان ترتفع وتنخفض بالنسبة لكثرة الشئ وقلته والحاجة اليه ، ويندر أن تقع على شئ لاقيمة له البتة فى نظر الناس . أما العامل الذى لا يحتاج الى عمله معمل من المعامل التى تنتج الأشياء فقيمته لاشئ ! لست أنكر أن للمعادن والحجارة الكريمة قيمة ، ولكنى أنكر على الناس أن يجعلوا قيمة كل مافى الأرض من ذهب وفضة وياقوت والماس فوق قيمة انسان واحد وان يكن ذلك الانسان شيخا على حافة القبر ، أو معتوها فى بيت المجانين ، أو مقعدا لا يفارق الفراش .

ولا أنكر أن للنفط قيمة كبيرة فى تسيير عجلات المدنية المتعددة العجلات ، ولكننى أنكر على النفط قيمة جديدة بأن تهدر فى سبيلها الدماء البشرية الزكية ، فتزهق الأرواح ، وتتفتت الأكباد ، وتمزق الأجساد ، وتعدو المدن والقرى العامرة خرابا ، والحقول والبساتين الغن بيابا .

ولا أنا أنكر على الناس قيمة معنوية تواضعوا عليها كالكرامة الشخصية ، والمعتقدات الدينية والاجتماعية والسياسية على اختلاف أنواعها وألوانها . ثم لا أستغرب أن يموت انسان فى سبيل كرامته ومعتقداته مثلما مات سقراط بالسسم ، وبرونو بالنار ، والحلاج بحد السيف ، ومثلما استشهد الكثير من رواد الحرية الفكرية فى سبيل عقيدة أو رسالة . ولكننى أنكر على أى الناس أن يميت أى انسان فى سبيل كرامته ومعتقداته .

انى أنكر على الناس يجعلوا العمل أثمان من العامل . والحاجة أعلى من المحتاج اليها ، والعقيدة أفضل من معتقدها . وأنكر على المدنية أن تسوق الملايين من أبنائها الى حتوفهم على رغم أنوفهم وذلك تحت ستار الدفاع عن حياضها المسمومة وبنياتها المتصدع . ومتى أصبح المورد أثمان من صاحبه

أو وارده ، والبنيان أهم من بانيه أو ساكنه فألف سلام على الورد ووارديه
وعلى البنيان وساكنيه .

سر كنين وكنز دفين هو الانسان ، وانا قدسى لحقيقة أزلية - أبدية هي
الله . ولا فرق ما بين رضيع ويافع ، وبين شاب وأشيب ، أو بين نكر وأثنى .
ونحن لانملك من معرفة الغيب ما يخولنا أن نحدد قيمة أى انسان ثم أن نجعل
تفاوتا فاضحا بين قيمه انسان وانسان .

ليت شعرى هل درت بنت فرعون يوم التقطت الطفل موسى أن لقيتها
سيقهر والدها يوما من الأيام ، وسيقهر الزمان من أعالي طور سينا ؟ ولو
هى شاءت أن تبيع ذلك اللقيط ترى بكم فلس كانت تبيعه ؟

ذلك مثال واحد من أمثلة بغير عد يحفل بها تاريخ البشرية ، وكلها
يشهد على أن قيمة الانسان فوق ما يستطيع الناس تحديده . فما أكثر
الأنبياء والعباقرة والعظماء الذين ما لعوا فى حدائهم ولا كان آباؤهم وأمهاتهم
على شئ من النبوّة والعبقريّة والعظمة . ولو كلف معاصروهم أن يقيموا
لهم أثمانا لما ميزوهم بشئ عن سائر الأحداث وعن سائر الآباء والأمهات ،
بل كان من الأرجح أن يجعلوهم فى أسفل السلم البشرى من حيث القيمة
والأهمية .

ان مدرسة تحشو دماغ التلميذ بشتى المعلومات من صالحة وطالحة
ولا تعلمه قيمته كانسان لمدرسة لافرق بينها وبين السجن ، وأن طالبا يتخرج
فى أعلى المدارس وبأضخم الشهادات ولا يعرف قيمة نفسه وقيمة الناس لطالب
دفن أجمل شطر من حياته فى التراب . فالشهادات تبلى ، والمعارف تتغربل ،
والأحوال تحول ، أما الانسان فأقوى من كل حال . والمدرسة المثلى هى التى
تهتم بالتلميذ انسانا عزيزا قبل أن تهتم به مهندسا أو طبيبا أو محاميا
بارعا .

وان معبدا يخرج منه العابد ذليل النفس ، صغير القلب ، كسير الجفن
لمعبد لا يعرف الله ، فالله ما خلق الانسان ليذله ويمتتهه ويشقيه ، بل ليرفعه
اليه ويكرمه ويسعده ، ولا يبراد من الطين لبيقيه طينا ، بل نفخ فيه من روحه

ليجعله روحا كروحه ، فالعبد الأمثل هو الذى اذا ما دخله العابد ذليلا وصغيرا وكسيرا خرج منه أيبا وكبيرا ومجنحا .

وان معملا يقيس العامل بما يدره على صاحب العمل من الربح لاغير لمعمل ربحه خسارة . فالعامل انسان قبل أن يكون عاملا . وأن يربح الانسان انسانا لأثمن من كل مافى الأرض من جواهر وأموال . فالمعمل الأمثل هو الذى يعمل الناس للناس ، كل على قدر معرفته وطاقته ، شاعرين بكرامة العمل وعزة النفس وغير مدفوعين الى العمل بمنلة الحاجة الخناقة .

لعل أفضح مايتحملة الانسان من الانسان هو الذل . فالذل أبشع وجها من الكبرياء ، وأمر مذاقا من الفقر ، وأثقل وطأة من المرض ، وأقسى نابا من الموت .

ولعل أفضح الناس فى عقيدتى هم الذين يعتزون بمنلة الغير ، فلا يسرهم شىء مثلما يسرهم أن يعفر الناس لديهم جباههم ، وأن يزحفوا اليهم على الأكف والركب ، وأن يحرقوا لهم البخور صباح مساء .

ولعل أنبل الناس فى عقيدتى هم الذين لاينزلون انسانا ولا ينزلون الانسان . لأنهم يعلمون أن رفعة تنهض على أكتاف الذل لمذلة أخط من الذل، وأن صورة الله فيهم هى صورة الله فى كل انسان .

لقد تفسى الذل فى الأرض فما استقل به قطر دون قطر ، ولا شرق دون غرب ، ومع الذل تفسى المن والرياء والغش والحذر والبعض والصلف والادعاء والغطرسة . فالصدق يكاد يكون عنقاء مغرب . ومثله الأمانة والثقة والمحبة والرفق واللطف والعدل والدعة . والذل وتوأمه الكبرياء الايكونان الا فى عالم تمتهن فيه قيمة الانسان . وعالم يمتهن قيمة الانسان لعالم مقضى عليه بالغليان والفوران ، ومن ثم بالانفجار .

ذاك هو العالم الذى نحن منه وفيه . فهو عالم تسيطر عليه ذهنية الحرب . وذهنية الحرب ذهنية بربرية تسترخص الانسان فى سبيل الكسب والسلطان . وياليت كسبها كان يوما من الأيام غير الدمار . وياليت سلطانها كان أكثر من عبودية للنار والدينار .

ذاك هو العالم الذى ورثناه عن سالف الأجيال • فهل نرضى بشأن
نورته على علته لمقبل الأجيال ؟

انى لأؤمل من الجيل الطالع والأجيال التى تليه أن يجيئوا بحزم قاطع
وايمان ثابت : «كلا !» وأن ينصرفوا قبل كل شىء وبعد كل شىء الى تعزيز
الانسان فى أنفسهم • فمن نعرف قيمته كإنسان عرف قيمة الناس أجمعين •
فما خفض الجناح لمغرور بمال أو بسلطان ، ولا صعر الخد على منبؤ أو
مهان • واذ ذاك فلعل الأجيال الآتية تعرف عالما يسوده اللطف والصدق
والتعاون • وتتذوق فى اليقظة ما لانتذوقه نحن الا فى المنام من حلوة العدل
والإخاء وحسن النظام •